قيام الدولة السعودية الأولى
وتوحيد نجد

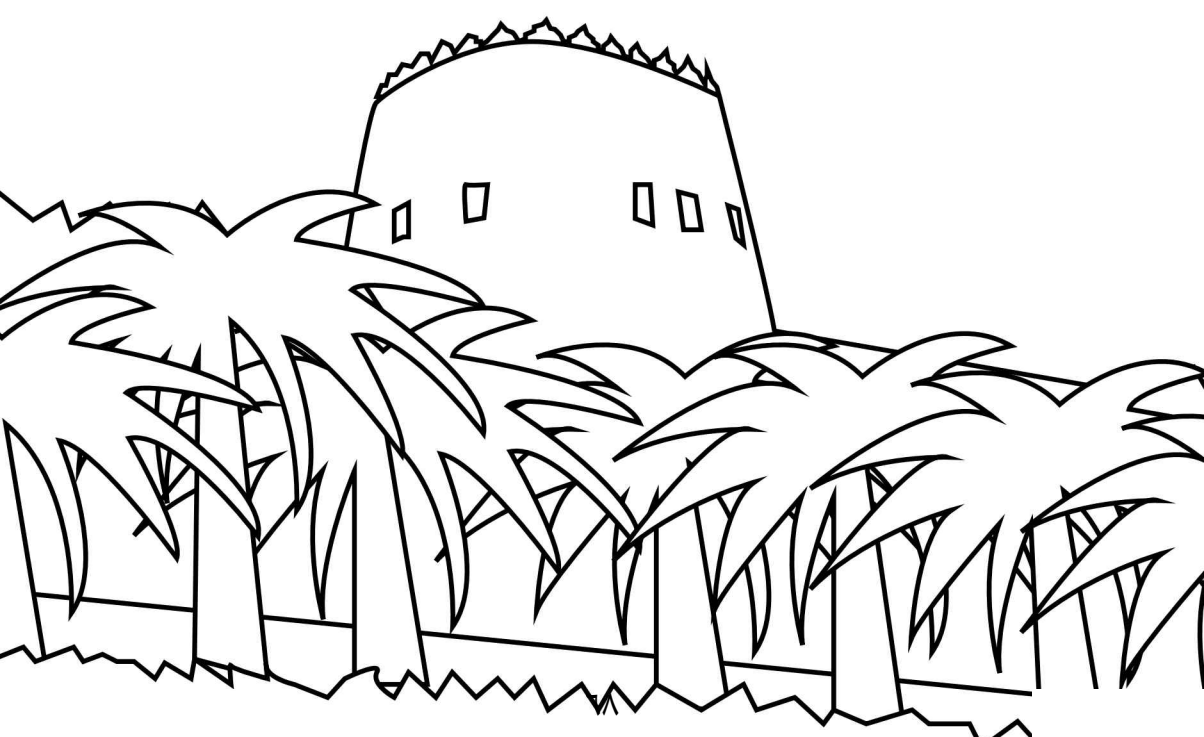

١ - آل سعود قبل قيام دولتهم:

تنسب بعض المصادر آل سعود إلى قبيلة عنزة المشهورة بهذا الاسم في الوقت الحاضر[١]. وهذا هو الشائع لدى كثير من الناس. غير أن ابن بشر، في إحدى روايتيه، وابن عيسى يذكران أنهم من بني حنيفة[٢]. ومعروف أن عنزة وبني حنيفة من وائل، ولذلك فإن آل سعود وائليون على أَيِّ حال. وكانت الأسرة السعودية قبل تَسمِّيها بهذا الاسم تُدعى آل مُقْرِن نسبة إلى مقرن بن مرخان، جد محمد بن سعود مؤسس الدولة السعودية الأولى.

وكان أحد أجداد آل سعود، مانع المُرَيدي، مقيمًا في مكان يقال له: الدِّرْعِيَّة قرب بلدة القطيف في المنطقة الشرقية من جزيرة العرب؛ وذلك قبيل منتصف القرن التاسع الهجري[٣]. ولا تعطي المصادر الموثوقة تفصيلات عن أسرة مانع قبل ذلك التاريخ. ومن المعروف أن فروعًا من بني حنيفة قد انتقلت من واديها إلى شرقي الجزيرة العربية في فترات تاريخية مختلفة. لكن من غير المعروف متى حدث انتقال أسلاف مانع المريدي إلى هناك.

وعلى أَيِّ حال فإن مانعًا المريدي كان له قريب يُسمَّى ابن دِرْع. وكان هذا القريب يسكن في جهة مدينة الرياض الحالية، التي كانت تُسمَّى حَجْر اليمامة. وكان له نفوذ في تلك الجهة. ونتيجة لمراسلات تمَّت بينهما قدم مانع وأقاربه إلى

---

(١) من هؤلاء بوركهارت، وترجمة عنوان كتابه: **رحلات في جزيرة العرب**، لندن ١٨٢٩م، ص٤٦١ وفؤاد حمزة، ص١٧٤ هامش ٢.

(٢) ابن بشر، ج٢، ص١٥؛ ابن عيسى، **تاريخ بعض الحوادث...**، ص٣٦، ويذكر العجلاني أن الأمير عبدالله بن عبدالرحمن، أخا الملك عبدالعزيز، والمشهود له بمعرفته بالأنساب، يقول: إن آل سعود حنفيون، انظر كتابه: **تاريخ البلاد العربية السعودية**، دار الكتاب العربي، دون ذكر تاريخ الطباعة، ج١، ص٧٧.

(٣) انظر عن هذا المكان محمد الفهد العيسى «**مدينة الدرعية**».. **العرب**، العدد الرابع، ١٣٨٦هـ، ص٣٢٥.

ابن دِرْع سنة ٨٥٠هـ[١]. ومنحه الأخير موضعي غَصِيبة والمُلَيبيد الذين أُنشئت عليهما بلدة الدِّرعيَّة عاصمة الدولة السعودية الأولى.

ولا تشير المصادر إلى السبب الذي أَدَّى إلى المراسلات بين مانع وابن دِرْع، نتج عنها انتقال الأول إلى منطقة الثاني. ومن المحتمل أن مانعًا كان يواجه حينذاك مشكلات سياسية أو اقتصادية لم يستطع التغلُّب عليها. ومعروف أن الدولة الجبرية قد ثَبَّتت أقدامها في شرقي الجزيرة العربية في تلك الفترة، ولَعلَّ مشكلات مانع المحتمل وقوعها كانت من أعمال الدولة المذكورة. واستقدام ابن دِرْع لقريبه ربما كان الهدف منه نجدته من ناحية، والتقوِّي به وبأتباعه من ناحية أخرى.

وقد أطلق مانع المريدي وأتباعه على مستقرهم الجديد اسم الدِّرْعيَّة، إحياء لاسم بلدتهم القديمة التي هاجروا منها، أو نسبة لابن دِرْع الذي منحهم ذلك المستقر، اعترافًا بفضله وتخليدًا لذكره.

والمتأمل في تاريخ الأسرة السعودية منذ استقرار جدها مانع في الدِّرْعيَّة حتى تَولَّى محمد بن سعود إمارة هذه البلدة- أي حوالي ثمانين ومئتي عام- يرى أنه مشابه، بصفة عامة، لتاريخ كثير من الأسر التي كانت تحكم بلدان نجد في تلك الفترة. وكانت هذه الأسرة ضعيفة، ثم قويت وتوسع نفوذها على

---

(١) ابن بشر، ج٢، ص٢٩؛ ابن عيسى، **تاريخ بعض الحوادث**، ص٣٦. وقد ذكر ابن بشر أن مانعًا هو الذي انتقل من شرقي الجزيرة العربية إلى العارض. وهو في ذلك يتفق مع الفاخري ص٦٠ وابن عيسى. لكنه يخلط نوعًا في موضع آخر من كتابه، إذ يقول (ج٢، ص١٨٩): إن الذي قدم إلى العارض ربيعة بن مانع، ثم يذكر (ج٢، ص١٩٠): أن مانعًا هو الذي انتقل، وهذا هو الصحيح. على أن ابن عيسى يذكر أن مانعًا كان مصحوبًا بابنه ربيعة. ويدل ذكر ربيعة بجانب والده على أنه كان حينذاك شخصية قوية. وما جرى على يديه من أحداث فيما بعد يؤيِّد ذلك.

حساب جيرانها من آل يزيد الحنفيين. وكغيرها من السر قام بين أفرادها صراع حول السلطة حتى ضعف أمرها، وانتزع إمارة البلدة منها رجل يقال له: سلطان بن حمد القِبْس؛ وذلك سنة ١١٠٧هـ.

على أن إمارة الدِّرْعية عادت بالقوة إلى أصحابها السابقين بعد ثلاثة عشر عامًا من استيلاء القِبْس عليها. وأصبح موسى بن ربيعة بن وطبان الأمير على البلدة. لكنه خُلِع عن الإمارة بعد فترة، وتَولَّاها سعود بن محمد بن مقرن حتى توفي سنة ١١٣٧هـ. وبعد وفاته تَأمَّر زيد بن مرخان في الدرعية، لكن محمد بن سعود كان له تأثير قَويٌّ جدًّا على سير الأحداث في البلدة.

وفي عام ١١٣٨هـ حَلَّ وباء في العُيَينة. وتوفي بسبب ذلك الوباء أميرها المشهور عبدالله بن مُعمَّر بعد أن حكمها حوالي أربعين عامًا. وتوفي مع الأمير عبدالله عدد كبير من رجال تلك البلدة. ويبدو أن زيد بن مرخان حاول الاستفادة من الظروف التي حَلَّت بالعُيَينة. فبدأ يُخطِّط مع فريق من قبيلة سُبَيع لمهاجمتها، وبخاصة أنها كانت تحتضن أحد خصومه؛ وهو موسى بن ربيعة. لكن الأمير الجديد، محمد بن مُعمَّر، عمل حيلة أنقذته من الهجوم المخطط ضده؛ إذ دعا زيد بن مرخان للتفاوض واعدًا إياه أن يستجيب لما أراده منه. وحينما قدم زيد إليه مع عدد من رجال بلدته غدر به وقتله. وكان ذلك سنة ١١٣٩هـ. وعاد من كانوا مع زيد إلى الدِّرْعيَّة بقيادة محمد بن سعود، الذي أصبح أميرًا لهذه البلدة منذ ذلك التاريخ[1]. وفي عهد محمد بن سعود حدث ما غَيَّر وجه تاريخ المنطقة كلها.

---

(١) انظر عن تفصيلات الأحداث السابقة، ابن بشر، ج٢، ص٢١٠ - ٢٢٢، ٢٢٨ - ٢٢٩ و٢٣٧ - ٢١٦ و٢٣٦.

٢- قيام الدولة السعودية:

عندما أصبح ضروريًّا أن يترك الشيخ محمد بن عبدالوهاب العُيَينة كانت الدِّرْعيَّة أنسب مكان يمكن أن يتوجه إليه. فقد كانت قوتها آخذة في الازدياد. ولعل من أَدلَّة ذلك أنها تَمكَّنت من الصمود أمام هجوم قائد بني خالد عليها سنة ١١٣٣هـ. وأنها كانت في مركز قوي جعلها تُفكِّر في الهجوم على العُيَينة سنة ١١٣٩هـ[١]، وأن دهام بن دَوَّاس، أمير الرياض، لم يستطع أن يسيطر على مشكلاته الداخلية سنة ١١٥٢هـ إلا بمساعدتها[٢]. وإضافة إلى ذلك فقد شهدت استقرارًا داخليًّا منذ تَولِّي محمد بن سعود عليها سنة ١١٣٩هـ[٣]. وكانت إمارتها ذات علاقة سيئة مع الزعامة الخالدية التي كانت وراء إخراج الشيخ محمد بن عبدالوهاب من العُيَينة. ولهذا كان من المتوقع أن تُرحِّب بمن يشاركها في سوء العلاقة مع تلك الزعامة. على أن ما هو أهم من ذلك كله أن دعوة الشيخ محمد سبق أن لقيت قبولًا حسنًا لدى كبار الدرعية ومشهوريها. وفي مُقدِّمة هؤلاء أخوا الأمير، مشاري وثُنيَّان، وابنه عبدالعزيز[٤].

وخرج الشيخ محمد بن عبدالوهاب بأسرته من العُيَينة ومعه فرقة من حرس الأمير عثمان ابن مُعمَّر لحمايته[٥]. وحينما وصل إلى الدِّرْعيَّة نزل ضيفًا

---

(١) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٢٣ و٢٣٧.

(٢) ابن غنَّام، ج٢، ص١٥؛ ابن بشر، ج١، ص٣٠ وج٢ ص٢٤١.

(٣) فلم تسجل المصادر أيَّ حركة ضد ذلك الأمير خلال تلك الفترة.

(٤) ابن غنَّام، ج١، ص٣١ و٢٢٢.

(٥) ابن بشر، ج١، ص٢٣. وقد حذف ابن بشر في مبيضة كتابه التي تمَّت بموجبها هذه الطبعة ما سبق أن ذكر في مسودته التي طبعت طبقًا لها بعض طبعات الكتاب من أمر عثمان بن معمَّر قائد رجاله بقتل الشيخ. وقد جاء هذا الحذف نتيجة تبينه عدم صحة تلك الرواية. وإذا كان المؤلف نفسه قد حذف الرواية المذكورة فإنه يتَّضح أن خروج الشيخ من العُيَينة ووصوله إلى الدِّرعية قد حدثا بشكل طبيعي.

عند آل سويلم، الذين كانوا من كبار البلدة ومن المُتحمِّسين للدعوة[1]. ثم أتى إليه الأمير محمد بن سعود برفقة أخويه مشاري وثُنَيَّان، ورَحَّب به غاية الترحيب، ووعده الحماية والتأييد[2].

وبينما يَتَّفق كل من ابن غنَّام وابن بشر على أن الأمير محمد بن سعود اشترط على الشيخ محمد- مقابل تأييده والوقوف مع دعوته- أَلَّا يغادر الدرعية مستقبلًا، يضيف ابن بشر إلى ذلك شرطًا آخر للأمير، وهو أَلَّا يعارضه الشيخ فيما كان يأخذه من سكان البلدة من ضريبة سنوية. وكانت إجابة الشيخ الموافقة على الشرط الأول. أما بالنسبة للشرط الثاني، فقد قال: إني أرجو الله أن يُعوِّضك من الغنائم ما هو خير مما كنت تأخذه من أولئك السكان[3]. وإذا كان ما أضافه ابن بشر صحيحًا، فإنه من الواضح أن الشيخ قارن بين المصلحة العامة للدعوة في اعتمادها على حماية الأمير محمد ووقوفه معها مسألة جزئية، كان واثقًا كل الثقة من حَلِّها بسهولة في المستقبل القريب. فكان أن أجاب بما أجاب به.

ومهما اختلفت تفاصيل الروايات حول الطريقة التي تَمَّ بها اللقاء بين الشيخ محمدِ بن عبدالوهاب والأمير محمد بن سعود، وما دار بينهما في ذلك

---

(١) ابن غنَّام، ج٢، ص٣؛ ابن بشر، ج١، ص٢٣ - ٢٤.

(٢) ابن غنَّام، ج٢، ص٣. لكن ابن بشر (ج١، ص٢٤) انفرد بالإشارة إلى خوف آل سويلم من نتائج حلول الشيخ لديهم، وزيارة بعض كبار أهل الدرعية له سرًّا، وإخبارهم زوجة الأمير بالقضية. وإقناعها زوجها بأن يستقبله استقبالاً حسنًا، وقد أوضح العجلاني ضعف هذه الرواية، ورجح أن يكون انتقال الشيخ إلى الدرعية بدعوة من الأمير محمد بن سعود، وأيَّد رأيه هذا بما نقله عن المؤرخ الفرنسي مانجان من دعوة الأمير للشيخ. انظر: **تاريخ البلاد العربية السعودية**، ج١، ص٩٠ - ٩١. والواقع أن هناك أوراقًا بخط المؤرخ النجدي ابن لعبون ذكر فيها أن الشيخ محمدًا انتقل إلى الدرعية بدعوة من الأمير محمد بن سعود.

(٣) ابن بشر، ج١، ٢٤ - ٢٥.

اللقاء، فإنها تَتَّفق على أنهما تبايعا على أن يعملا في سبيل الدعوة الإصلاحية ونشرها بكل ما يستطيعان من الوسائل. وكان ذلك سنة ١١٥٧هـ (١٧٤٤م)[١]. وعلى هذا الأساس قامت دولة جديدة في المنطقة هي الدولة السعودية الأولى.

ويشير بعض المؤلفين إلى أن الشيخ والأمير اتَّفقا، أيضًا على أن تكون الأمور السياسية في الدولة الجديدة لمحمد بن سعود وذريته. وأن تكون الشؤون الدينية لمحمد بن عبدالوهاب ونسله[٢]. ويبدو أن هؤلاء استنتجوا ما أشاروا إليه من سير الأحداث فيما بعد. والواقع أنه كان طبيعيًّا أن تستمر القيادة السياسية لآل سعود، لأنهم كانوا أمراء الدرعية- قاعدة الدولة الجديدة- قبل المبايعة التي قامت على أساسها هذه الدولة. ووقوفهم مع الشيخ ودعوته قَوَّى مركزهم وحَتَّم استمرار قيادتهم. وكان من أتى بعد محمد بن سعود منهم إلى القيادة مُؤهَّلًا لتولِّيها كل التأهيل. وكان طبيعيًّا، أيضًا، أن تكون إدارة الشؤون الدينية في أيدي أبناء الشيخ محمد بن عبدالوهاب بعد وفاته؛ لكفاءتهم العلمية من ناحية، ولمكانة أبيهم في قيادة الدعوة وإسهامه في تصريف أمور دولتها من ناحية أخرى. وعلى هذا فما حدث من تَولِّي أبناء الزعيمين مستقبلًا لما تَولَّوه كان نتيجة طبيعية، ولم يكن -على الأرجح- بناء على اتفاق سابق.

٣- الدولة قبل الصراع المُسلَّح مع خصومها:

بعد المبايعة التي تَمَّت بين الشيخ محمد بن عبدالوهاب والأمير محمد بن سعود، والتي نشأ عنها قيام الدولة السعودية الأولى، واصل الشيخ جهوده في سبيل نشر دعوته. وكانت تلك الدعوة قد انتشرت بين سكان الدِّرعيَّة- كما سبق أن ذُكِر- قبل انتقاله إليه. بل إن عددًا من كبارها قد قاموا بأعمال

---

(١) ابن غنَّام، ص٤، ابن بشر، ج١، ص٢٥.

(٢) **لمع الشهاب**، ص٢٦ و٢٧. ويبدو أن من ذكروا ذلك، فيما بعد، قد نقلوا عن هذا المصدر.

جليلة أزالوا بها ما حول بلدتهم من أشجار يتوسَّل بها الجهال[1]. لكن انتقال الشيخ محمد إلى الدرعية ووقوف أميرها معه زادا من فرص إيضاح حقيقة دعوته لبقية سكانها وتعليمهم مبادئها، وقد هَبَّ أنصاره وتلاميذه لمساعدته في مَهمَّته التعليمية. وكان في مُقدِّمة هؤلاء إخوة الأمير محمد بن سعود الثلاثة: مشاري، وثُنيَّان، وفرحان، والشيخان أحمد بن سويلم، وعيسى بن قاسم[2]. ولم تمض مدة طويلة على استقراره في وطنه الجديد إلا وقد تَعلَّم السكان أصول دينهم التي تجب عليهم معرفتها[3].

وما إن استقر الشيخ محمد في الدِّرْعيَّة، وعلم أنصاره في المنطقة أنه محمي من قِبَل أميرها محمد بن سعود، حتى أخذوا يفدون إليه. ومن هؤلاء الأنصار من استقر عنده ولم يعد إلى بلده. ومنهم من تركوا بلدانهم نتيجة لما كانوا يلاقونه من مضايقة على أيدي زعمائهم، الذين لم يُؤيِّدوا الدعوة، أو لخوفهم من وقوع مضايقة لهم من أولئك الزعماء. لكن من المحتمل أن استقرار بعض أنصار الشيخ في الدِّرْعيَّة كان سببه رغبتهم في أن يبقوا قربه، ليستفيدوا من علمه، ويساعدوه في نشر الدعوة.

كان أولئك الوافدون من طبقات اجتماعية مختلفة، فمنهم من كانوا من أسر حاكمة؛ مثل أناس من آل مُعمَّر[4]. وربما كانت الحالة الاقتصادية لهؤلاء حسنة. لكن أكثر الوافدين كانوا من الفقراء الذين قال عنهم ابن بشر: إنهم كانوا يعملون ليلًا لِيتفرَّغوا لحضور دروس الشيخ نهارًا[5]. وسواء كان تعليل هذا

(١) ابن غنَّام، ج١، ص٣١.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٤.

(٣) وكان من وسائله للوصول إلى ذلك تأليف رسالة الأصول الثلاثة، وتعليم الناس إيَّاها. انظر ابن بشر، ج١، ص٢٦.

(٤) ابن غنَّام، ج٢، ص٤؛ ابن بشر، ج١، ص٢٥.

(٥) المصدر الأخير نفسه، الصفحة ذاتها.

المؤرخ صحيحًا أو لم يكن، فإنه ما من شك بأن المجتمع الجديد كان حريصًا على التعلم. وإذا كان بعض المحتاجين من الوافدين قد وجدوا أعمالًا مهما كانت شاقة، فإن بعضهم الآخر لم يجدوا أعمالًا على الإطلاق. وقد شعر الشيخ بالعطف عليهم، والمسؤولية تجاههم. فكان يستلف من القادرين ليساعد أولئك المحتاجين[1].

ولم تكن الأمور السابقة تجري في منأى عن علن سكان المنطقة؛ قادة وأتباعًا. وحين رأى الأمير عثمان بن مُعمَّر ازدياد المنتقلين إلى الدِّرْعيَّة من بلدان نجدية مختلفة، ومن بلدته ذاتها، أدرك أنه قد ارتكب خطأ فادحًا في عدم إبقائه الشيخ محمدًا عنده. وأن حكم آل سعود سوف يقوى بدرجة تجعل مركزه ثانويًّا في المنطقة. وفي محاولة لعلاج الموقف ترأس وفدًا من كبار قومه، وقدم إلى الدِّرْعيَّة. وعندما قابل الشيخ محمدًا طلب منه أن يعود إلى العُيَينة، مؤكدًا له أنه سيحميه وينصره. لكن الشيخ أخبره بأن ذلك الأمر في يد الأمير محمد بن سعود. وكما كان متوقعًا رفض هذا الأمير طلب عثمان[2]. وذلك لاقتناعه أكثر فأكثر بصحة الدعوة، ولبعد نظره ومعرفته بنتائج وجود الشيخ في بلدته.

وفي أثناء ذلك كان الشيخ محمد يكاتب العلماء ورؤساء البلدان والقبائل في نجد، لينضموا إلى الدولة الجديدة التي قامت على أساس دعوته. وقد أثمرت الجهود المبذولة في هذا الشأن، فانضم أمراء بعض البلدان إليها طائعين مختارين. ومن هؤلاء أمراء العُيَينة وحُرَيملاء ومنفوحة[3]. ومن الواضح أن العامل الديني كان مُهمًّا في تحديد مواقف الذين أَيَّدوا الانضمام أو الذين عارضوه. فمن

---

(١) المصدر نفسه، ج١، ص٢٧.

(٢) ابن غنَّام، ج٢، ص٤، ٦ و٨ – ٩؛ ابن بشر، ج١، ص٢٥، ٢٨، ٣١، ٣٢.

(٣) ابن غنَّام، ج٢، ص٦.

المؤيِّدين من كانوا مقتنعين بصحة دعوة الشيخ محمد. وبما أن الدولة الجديدة قائمة على أساس تلك الدعوة، فإنهم اختاروا الانضمام إليها. ومن المعارضين من لم يكونوا يرون صحة الدعوة المذكورة. ولذلك رفضوا الانضمام إلى دولة أُسست على مبادئها. على أن هناك عوامل سياسية واقتصادية كانت وراء انضمام بعض الأمراء النجدين إلى دولة الدِّرْعيَّة أو رفض الانضمام إليها من قِبَل البعض الآخر.

وعلى أَيِّ حال، فإن القيادة في الدِّرْعيَّة رأت، سنة ١١٥٨هـ، أن الوقت قد حان للانتقال إلى مرحلة جديدة، ينال فيها بالقوة ما لم ينل بطريقة الحجة والإقناع. فقد شهدت السنتان الأوليان من عمر الدولة الجديدة انتصارات سياسية ومعنوية كبيرة. ذلك أن عدة بلدان نجدية قد انضمت إليها. وبهذا تَغيَّر ميزان القوة المحلِّية لصالحها. ولقد شعر أنصارها المتزايدون بالاطمئنان أكثر من ذي قبل. وكان هؤلاء على استعداد لتنفيذ ما تطلبه منهم قيادتهم؛ إذ كانوا يرون أن خصومها أعداء للإسلام. والمنطقة كانت بعيدة عن أَيِّ سلطة مركزية قوية. ولذلك فإنها ميدان فسيح لتحقيق كثير من النجاح العسكري، قبل أن تمتد إليها يد خارجية لتحاول القضاء عليها. وكانت إمكانات الدِّرْعيَّة الاقتصادية محدودة أمام ازدياد الوافدين إليها من أنصار الدعوة الفقراء، الذين شَحَّت فرص العمل أمامهم مما جعل الشيخ محمدًا يستلف أموالًا لمساعدتهم، كما ذُكِر سابقًا. وكان أولئك الوافدون- من ناحية أخرى- مؤهلين لأن يقوموا بدور كبير في تأسيس جيش قوي. وإضافة إلى ذلك كله، فإن ما حدث من مضايقة لبعض أنصار الدعوة كان دافعًا لأن تقوم الدولة الجديدة بمهاجمة الذين ألحقوا أضرارًا بهؤلاء الأنصار. وما دامت الظروف مُهيَّأة لابتداء الصراع المسلَّح بين الدولة الجديدة وخصومها، فكيف بدأ ذلك؟

يقول ابن بشر: «ثم أمر الشيخ بالجهاد... فأول جيش غزا سبع ركائب، فلما ركبوها، وأعجلت بهم النجائب في سيرها سقطوا من أكوارها، لأنهم لم يعتادوا ركوبها، فأغاروا، أظنُّه على بعض الأعراب، ففنموا ورجعوا»[1].

ورواية هذا المؤرخ تفيد أن: الدولة الجديدة هي التي أخذت زمام المبادرة في بدء الحروب ضد خصومها، وكان هذا أمرًا متوقعًا. لكن تفاصيل هذه الرواية تثير سؤالاً لدى الباحث. ذلك أنه من المرجح أن يبذل قادة الدِّرْعيَّة كل ما في وسعهم لإظهار الغزوة الأولى من غزواتهم بمظهر قوي، لتترك أثرًا في نفوس المعارضين لهم. ومن المرجح أيضًا أنه كان في استطاعتهم أن يُجهِّزوا جيشًا أكبر بكثير مما ذُكِر. ومعروف أن الإبل كانت وسيلة المواصلات الأساسية في نجد حينذاك. ومن المستبعد جدًّا أن يكون جميع أفراد ذلك الجيش غير معتادين على ركوبها. والمؤلف يشير إلى عدم معرفته بمن وُجِّهت إليهم تلك الغزوة. وغريب أن تكون الغزوة الأولى -بما لها من أهميَّة تاريخية- مجهولة الهدف.

على أن مؤلفًا مجهولًا قد ذكر أن أول غزوة خرجت من الدرعية كان قوامها ستة عشر رجلًا على ثمان من الإبل، وأن الذين قاموا بها رجعوا دون الحصول على غنائم[2]. ويذكر بوركهارت أن عدد الإبل في الغزوة الأولى كان سبعًا. لكنه لم ينص على عدد الرجال، ولم يشر إلى نتيجة غزوهم[3].

وما ذكره المؤلفون الثلاثة السابقون يَدلُّ على ضعف الغزوة الأولى، وإن اختلفوا في التفاصيل. كما يَدلُّ على أن الدولة الجديدة هي التي بدأت الحرب

---

(١) ابن بشر، ج١، ص٢٦ - ٢٧.

(٢) انظر: **كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب**، تحقيق عبدالله العثيمين، دارة الملك عبدالعزيز بالرياض، ١٤٠٣هـ، ص٤٧ - ٤٨.

(٣) بوركهارت، ملحوظات، ج٢، ص٢٨.

ضد خصومها. واتفاق المصدرين الأخيرين مع ابن بشر يوحي بأن ما ذكره هؤلاء الثلاثة كان شائعًا لدى الأوساط الشعبية، على الأَقلِّ، في وسط جزيرة العرب.

أما ابن غنَّام، تلميذ الشيخ محمد المهتم بذكر مثل هذه الحادثة، فلم يشر إليها. بل ذكر أن دهام بن دَوَّاس، أمير الرياض، هو الذي قام بمهاجمة بلدة منفوحة، التي سبق أن انضمت إلى دولة الدِّرْعيَّة. فأرسلت قيادة هذه الدولة نجدة لمساعدتها ضد من هاجمها. على أن ابن دَوَّاس اضطر، على أَيِّ حال، إلى الانسحاب من منفوحة إلى الرياض بعد أن أصيب بجروح، وبهذه الحادثة بدأت الحروب والغزوات[1].

وهكذا يبدو من رواية ابن غنَّام أن خصوم الدولة الجديدة هم الذين بدأوا بمهاجمتها، وأوقدوا شرارة الحرب ضدها. وما ورد في إحدى رسائل الشيخ محمد يُؤيِّد هذه الرواية إلى حَدٍّ ما؛ إذ قال: «وأما القتال فلم نقاتل أحدًا إلا دون النفس والحُرْمة. وهم الذين أتونا في ديارنا ولا أبقوا ممكنًا»[2].

ولم يكن غريبًا أن يهاجم دهام بن دَوَّاس بلدة منفوحة، ذلك أنه كان يضمر الحقد لزعمائها الذين سبق أن انتزعوا إمارتها من أسرته قبل حوالي عشرين عامًا من هجومه عليها[3]، ثم إن انضمامها إلى الدولة الجديدة جعل

---

(١) ابن غنَّام، ج٢، ص٦.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١٥.

(٣) كان أبو دهام بن دوَّاس أميرًا لبلدة منفوحة. وقد وقع بينه وبين أناس من جماعته؛ بينهم المزارِيع، خلاف نتج عنه قتله لعدد منهم. وحين توفي دوَّاس سنة ١١٣٩هـ تولَّى إمارة منفوحة ابنه محمد. لكن زامل بن فارس تزعَّم ثورة ضده، فقتله وأجلى إخوته الباقين عن البلدة. فاستقروا في الرياض. وتزوَّجت أختهم بأميرها، فأنجبت له ابنًا. وفي عام ١١٤٦هـ قتل هذا الأمير على يد أحد أقاربه، فتولَّى مملوك له شؤون البلدة. وبعد ذلك بخمس سنوات تقريبًا هرب المملوك من الرياض. فاستولى دهام بن دوَّاس على مقاليد الأمور فيها بحجة أنه وصيٌّ على ابن أخته، الذي كان لا يزال صغير السن. لكنه لم يلبث أن جعل الإمارة له. انظر تفاصيل ذلك لدى ابن بشر، ج١، ص٢٩، ج٢، ص٢٣٧ و٢٤٠ - ٢٤١.

الرياض بين فَكَّي الرحى لوقوعها بين الدِّرْعيَّة شمالًا ومنفوحة جنوبًا. وأصبح لزامًا عليه أن يَتحرَّك لإزالة الخطر المحدق به. فرأى مهاجمة منفوحة أسهل عليه من مهاجمة الدِّرْعيَّة، لكونها أضعف عسكريًّا، ولقربها من بلدته مسافة.

٤- توحيد نجد:

من الواضح أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب رأى منذ بداية دعوته أن مجال نشاطها منطقة نجد. ولَعلَّ من أكبر الأَدلَّة على ذلك ما قاله للأمير عثمان بن مُعمِّر في أَوَّل لقاء بينهما:

«إني لأرجو إن أنت قمت بنصر لا إله إلا الله أن يظهرك الله، وتملك نجدًا أو أعرابها»[1].

ولقد استغرق توحيد الدولة الجديدة لنجد أكثر من أربعين عامًا. ويبدو أن من أسباب ذلك ما تَعمَّق في نفوس كثير من أمراء بلدان المنطقة وزعماء قبائلها، من نزعة استقلالية مَحلِّية وشعور سلبي تجاه الوحدة الإقليمية.

ويلفت نظر الباحث أن هناك ثلاث مراحل مُتمِّيزة إلى درجة كبيرة في الجهود التي بُذِلت لتوحيد نجد. المرحلة الأولى من بداية الحرب بين الدولة الجديدة وخصومها سنة ١١٥٩هـ، إلى بداية التدُّخل الخالدي ضدها سنة ١١٧٢هـ. والمرحلة الثانية من هذه السنة الأخيرة إلى استيلائها على الرياض سنة ١١٨٧هـ. والمرحلة الثالثة من ذلك التاريخ إلى استكمالها توحيد نجد في مستهل القرن الثالث عشر الهجري.

---

(١) المصدر نفسه، ج١، ص٤٣.

أ- المرحلة الأولى:

كانت جهود الدولة في المرحلة الأولى من تَحرُّكها العسكري لتوحيد نجد محدودة من حيث القوة، ومن حيث اتساع المدى الجغرافي لذلك التَّحرُّك. وكان أَشدَّ خصومها حينذاك دهام بن دوَّاس، أمير الرياض؛ إذ حدث بينها وبينه سبع عشرة موقعة. ومع أن زمام المبادرة في أكثر هذه المواقع كان في يدها، إلا أن ذلك الأمير استطاع في أحيان قليلة أن يبدأ بالهجوم، وأن ينقل ميدان المعركة إلى أراضيها[1]. وحينما أدرك ضعف موقفه ونجاح دولة الدرعية في القضاء على مشكلاتها الداخلية، سنة ١١٦٧هـ، اضطر إلى مهادنتها، ودفع غرامة مالية إليها[2]. لكن تلك الهدنة لم تستمر أكثر من سنة واحدة، عاد بعدها دهام إلى نشاطه العسكري.

ومما يلفت النظر أن المرحلة الأولى من مراحل توحيد نجد شهدت انضمام بلدان نجدية إلى الدولة الجديدة بطريقة سلمية؛ مثل ضرماء وشقراء. ولكنها شهدت أيضًا، حدوث مشكلات داخلية متعددة. وكان في مُقدِّمة هذه المشكلات قضية أمير العُيَينة عثمان بن مُعمَّر.

لقد كان عثمان- كما ذُكِر سابقًا- أَوَّل أمير نجدي يناصر دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، لتدخل مرحلة التطبيق في المجال الديني.

ثم وقع عليه تهديد من زعيم بني خالد جعله يَتخلَّى عن ذلك الشيخ. وحين أدرك خطأه في موقفه تجاهه حاول إعادته إلى بلدته، لكنه فشل في مسعاه. ويبدو أنه رجع من الدِّرْعيَّة إلى العُيَينة، وفي نفسه ما فيها من غيرة سياسية

---

(١) انظر تفاصيل تلك المواقع لدى ابن غنَّام، ج٢، ص٦ - ١٩ و٤٥ - ٥٣، وابن بشر، ج١، ص٣٣ - ٤٨.

(٢) المصدر الأخير نفسه، ج١، ص٤٣.

بالنسبة لآل سعود، وأن تلك الغيرة ظَلَّت تسيطر على مشاعره رغم مسايرته للدولة الجديدة التي أعلن انضمامها إليها. ففي سنة ١١٥٩هـ اشترك مع أهل بلدته مُتزعِّمًا إيَّاهم في الحرب ضد الرياض[١]. لكنه في السنة التالية لم يشترك بنفسه في غزو تلك البلدة[٢]. ومن الواضح أنه أدرك ما قد يَترتَّب على موقفه من تَوتُّر في علاقته مع قيادة الدولة في الدِّرعية، فوفد إليها للتفاوض. ولَعلَّ هذه القيادة شعرت بما يدور في نفسه من طموح، فرأت أن تُحقِّق له ما يرضي طموحه. وأسندت إليه القيادة العامة لجيوش الدولة كلها[٣]. وبدا وكأن الأمور قد حُلَّت حلًّا مُوفَّقًا. لكن الأحداث لم تجر وفق ما كان مؤملًا. فمع أن عثمان أصبح يقود جيوش الدولة ضد خصومها، إلا أنه قام بتصرفات أثارت شكوك قادة تلك الدولة في إخلاصه. ومن هذه التصرفات دعوته دهام بن دوَّاس والعنقري للاجتماع به في العُيَينة دون علم الشيخ بذلك، وعدم إقدامه على دخول ثَرْمداء، التي كان أكثر مقاتليها خارج أسوارها حين وصل إليها غازيًا[٤]. وقد بلغت الشكوك فيه لدى المتحمِّسين للدعوة الإصلاحية من أهل العُيَينة حَدًّا جعلهم يقدمون على قتله سنة ١١٦٣هـ[٥].

على أن المشكلات الداخلية للدولة السعودية الناشئة لم تنته بمقتل عثمان بن مُعمَّر. ذلك أنه لم يمض على مقتله عام إلا وقد تَمرَّد أمير بلدة ضرما على الدولة، وبدأ يحاربها. وفي عام ١١٦٥هـ ثارت بلدة حُرَيملاء. ثم ثارت بلدة منفوحة بعد ذلك بسنة[٦]. وكان من أكبر أسباب ثورة حُرَيملاء، بالذات، ما

(١) ابن غنَّام، ج٢، ص٨.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٩.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٩ - ١٠؛ ابن بشر، ج١، ص٣٤.

(٤) المصدر الأخير نفسه، ج١، ص٣٤ - ٣٦.

(٥) ابن غنَّام، ج٢، ص١٢ - ١٤؛ ابن بشر، ج١، ص٣٦ و٣٩.

(٦) ابن غنَّام، ج٢، ص١٨ - ١٩؛ ابن بشر، ج١، ص٤١ - ٤٢.

قام به قاضيها سليمان بن عبدالوهاب- أخو الشيخ محمد- من نشاط عدائي ضد الدعوة ودولتها[1]. لكن قيادة الدولة تَمكَّنت من التغلُّب على تلك المشكلات الداخلية بطريقتها الخاصة. واستطاعت أن تعيد البلدان الثائرة إلى الطاعة. وكان نجاحها في هذا المجال مما زاد من هيبتها في نظر الآخرين، ودفع بلدانًا نجدية أخرى إلى الانضمام إليها[2]. ومن حسن حظ تلك القيادة أنها كانت في تلك المرحلة التأسيسية المهمَّة تواجه قوى مَحلِّية مفككة بصفة عامة، وأن نشاطها لم يَتعرَّض لأَيِّ تَدخُّل خارجي.

ب- المرحلة الثانية:

كان التدَّخل المتوقع حدوثه ضد الدولة الجديدة في نجد محتملاً أن يأتي من حكام الأحساء، زعماء بني خالد، أو من أشراف الحجاز، وذلك بسبب ما كان لهؤلاء وأولئك من نفوذ في بعض الأقاليم النجدية. لكن تَدخُّل حكام الأحساء كان أكثر احتمالاً للأسباب الآتية:

١- أن الأحساء أقرب إلى الدرعية، قاعدة الدولة الجديدة من الحجاز.

٢- أن النفوذ الخارجي في إقليم العارض قبيل قيام تلك الدولة كان لحكام الأحساء.

٣- أن حاكم الأحساء قد بدأ فعلًا نشاطه ضد الدعوة قبل تلك الفترة. وذلك بتهديده عثمان بن مُعمّر، ليتخلَّص من الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

٤- أن العلاقة بين الزعامة الخالدية وإمارة الدِّرْعيَّة كانت سيئة قبل بداية الدولة السعودية الأولى.

---

(١) ابن غنَّام، ج٢، ص١٧ - ١٨؛ ابن بشر، ج١، ص٤١ - ٤٢.

(٢) من هذه البلدان القُوَيعيَّة. انظر ابن غنَّام، ج٢، ص٤٧.

وكان أن حدث التدَّخل العسكري من حكام الأحساء قبل التَّدخل العسكري من أشراف الحجاز بأكثر من ثلاثين سنة. على أن التَّدخل الإحسائي نفسه لم يحدث إلا بعد حوالي ثلاثة عشر عامًا من بدء القتال بين الدولة الجديدة في نجد وبين خصومها. فما أسباب تَأخُّر ذلك التَّدخل؟

لَعلَّ من هذه الأسباب اعتقاد الزعامة الخالدية بأن المعارضة المحلِّية النجدية قادرة على مقاومة الدولة الجديدة والقضاء عليها. لكن من الثابت، أيضًا، أنه حدث صراع بين زعماء بني خالد على القيادة. ومن نتائج ذلك الصراع أن توفي سليمان بن محمد، الذي كان وراء إخراج الشيخ من العُيَينة، طريدًا في الخرج سنة ١١٦٦هـ[١].

واستمر الصراع بين أولئك الزعماء حتى تَمكَّن عُرَيعر بن دُجَين من السيطرة على مقاليد الأمور في الأحساء حوالي سنة ١١٧٠هـ[٢]. ولَعلَّ هذا الصراع الداخلي كان أهم الأسباب في تَأخُّر تَدخُّل الزعامة الخالدية عسكريًّا ضد دولة الدِّرْعيَّة.

وما إن استقرت الأمور لعُرَيْعر بن دُجَين في منطقة الأحساء، حتى بدأ يستعد لغزو نجد محاولًا القضاء على دولتها الناشئة؛ وذلك عام ١١٧٢هـ. لكن قادة هذه الدولة علموا بنشاطه، فأعدُّوا للأمر عُدَّته، وبنوا سورين حول الدِّرْعيَّة، كما عَزّزوا مواقعهم الأخرى[٣]. وحينما وصل الزعيم الخالدي بأتباعه إلى نجد انضم إليه المعارضون لتلك الدولة. لكن قواته التي بعثها لمساعدة

---

(١) ابن بشر، ج١، ص٤٣.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها، ويبدو أن اسم الزعيم الخالدي الجديد عَرْعَر، وذلك ما نص عليه نيبور (ج٢، ص١٢٦)، الذي زار المنطقة في أيام حكمه، كما نص عليه آل عبدالقادر، ج١، ص١٢٨ لكن المصادر المؤيدة للشيخ محمد صغَّرت اسمه، ثم قبلت أسرته بهذا التصغير، وأصبحت تنتسب إليه.

(٣) ابن غنَّام، ج٢، ص٥٤ - ٥٥.

المعارضين للاستيلاء على حُرَيملاء فشلت في مَهمَّتها، ثم عجزت قواته الرئيسية أن تقتحم بلدة الجُبَيلة. وبذلك اضطر إلى الانسحاب من نجد دون تحقيق أَيِّ انتصار[١].

وكان لفشل الحملة العسكرية الخالدية الأولى ضد الدولة السعودية أثر كبير على سير الأحداث في المنطقة. فقد أدرك خصوم هذه الدولة قوتها، فأسرع بعضهم إلى مصالحتها ودفع غرامات مالية إليها[٢]. وارتفعت معنويات قادتها وأتباعهم، حتى أصبحت غزواتهم تصل إلى أمكنة لم تكن تصل إليها من قبل، وأخضعوا أكثر بلدان الوَشْم وسُدَير[٣]. ولم تمض أربع سنوات إلا وقد أصبحت لديهم الجرأة على غزو الأحساء ذاتها[٤]. ومن الواضح أن هدف هذا الغزو لم يكن محاولة الاستيلاء على تلك المنطقة، وإنما إظهار القوة أمام حكامها ومن يرجو مساعدتهم من أهل نجد. وكان من ثماره أن دهام بن دَوَّاس، الذي كان لا يزال أَشدَّ الخصوم النجديين، جنح إلى السلم، ودفع غرامة مالية كبيرة إلى الدِّرْعيَّة[٥].

على أن المرحلة الثانية من مراحل توحيد نجد لم تَخلُ من مشكلات صعبة. ذلك أن نكسة حَلَّت بالدولة خلالها نتيجة تَدخُّل غير نجدي من جهة لم يكن مُتوقعًا تدَخُّلها، وهي نجران.

كان عبدالعزيز بن محمد بن سعود قد أصبح قائد جيوش الدولة كلها بعد مقتل عثمان بن مُعمَّر. وبينما كان في إحدى غزواته علم أن جماعة من قبيلة

---

(١) ابن بشر، ج١، ص٥١.

(٢) ابن غنَّام، ج٢، ص٥٥ - ٥٦.

(٣) ابن بشر، ج١، ص٥٢ - ٥٤.

(٤) ابن غنَّام، ج٢، ص٦٢.

(٥) ابن بشر، ج١، ص٥٦.

سُبَيع، الموالية لقادة الدِّرْعيَّة حينذاك، قد نهبها فريق من قبيلة العُجْمان. فما كان منه إلا أن لحق بذلك الفريق، وفاجأه بالهجوم. فقتل منه حوالي خمسين رجلاً، وأسر آخرين. وهرب الناجون من العُجْمان إلى نجران، حيث القبائل اليامية التي تَمُت إليهم بصلة النسب. وطلبوا من رئيس تلك البلاد، حسن بن هِبَة الله المَكْرمي، أن يساعدهم في الثأر لما حَلَّ بهم على يد عبدالعزيز بن محمد. فهَبَّ ذلك الرئيس لنجدتهم، يدفعه عاملان: أحدهما: اختلاف مذهبه الديني الباطني مع عقيدة قادة الدولة السعودية وأتباعها. وثانيهما: صلة النسب بين القبائل التابعة له وبين قبيلة العُجْمان. والتقى جيشه بجيش عبدالعزيز ابن محمد في الحائر الواقعة جنوب الرياض. وانتهت المعركة بهزيمة كبيرة لجيش عبدالعزيز؛ إذ قتل منه ما يزيد على أربع مئة رجل، وأسر كثيرون، فطلب قادة الدرعية من فيصل بن سويط، رئيس الظفير، أن يتوسط في الأمر، فاستجاب ودفع قادة الدرعية مبالغ مالية إلى الرئيس النجراني، وتوصلوا معه إلى صلح يتبادل بموجبه الطرفان الأسرى، ويعود ذلك الرئيس إلى بلاده[1].

ولقد بعث انتصار الرئيس النجراني على عبدالعزيز بن محمد الأمل في نفوس المعارضين النجديين للدولة السعودية، وحاولوا أن يغروا ذلك الرئيس بالزحف على عاصمة هذه الدولة. واتصلوا بزعيم بني خالد يستقدمونه لاستغلال فرصة ما حَلَّ بجيشها من هزيمة. وقد نجح اتصالهم بالزعيم الخالدي، فَتوجَّه بأتباعه إلى العارض، وأرسل إلى الرئيس النجراني يَحثُّه على البقاء هناك، حتى يصل إليه ليقضيا معًا على تلك الدولة. لكن رسالته لم تصل، فيما يبدو، إلى ذلك الرئيس إلا بعد اتِّفاقه مع قادتها. فرأى أن ما حققه من نصر قد أَدَّى الغرض الذي جاء من أجله غازيًا. وانسحب إلى نجران[2].

(١) ابن غنَّام، ج٢، ص٦٥ - ٦٧؛ ابن بشر، ج١، ص٥٦ - ٥٨.

(٢) ابن غنَّام، ج٢، ص٦٧.

وحينما وصل زعيم بني خالد إلى نجد انضمت إليه المعارضة النجدية، واتَّجه الجميع إلى الدِّرْعيَّة فحاصروها. وكانوا يعتقدون أنهم سينتصرون على قوتها بعد ما أصابها في الحائر. لكن جميع تقديراتهم فشلت لما أبداه سكان العاصمة من بسالة وإقدام. فاضطر المهاجمون إلى الانسحاب بعد عشرين يومًا من الحصار تاركين وراءهم خمسين قتيلًا[1].وقد رفع فشل الزعيم ال

وقد رفع فشل الزعيم الخالدي ومن معه أمام أسوار الدِّرْعيَّة معنويات أتباعها التي كانت قد اهتزَّت نوعًا ما إثر معركة الحائر. ولم يجد رأس المعارضة النجدية، دهام بن دَوَّاس، بُدًّا من طلب الهدنة مع قادة الدولة السعودية. فأجيب إلى طلبه[2]. لكن الهدنة لم تستمر أكثر من تسعة شهور. ولَعلَّ وفاة محمد بن سعود كانت من أسباب نقض دهام لتلك الهدنة.

وفي نهاية ربيع الأول من عام ١١٧٩هـ توفي الأمير محمد بن سعود[3]. فخلفه في الحكم ابنه عبدالعزيز، الذي كان تلميذًا للشيخ محمد، كما كان مُتمرِّسًا في أمور الدولة العامة، وبارعًا في القيادة العسكرية.

وقد واصل عبدالعزيز بن محمد النشاط العسكري للدولة يشاركه، أحيانًا، في تَولِّي الجيش ابنه سعود[4]. ولم تأتِ سنة ١١٨٣هـ إلا ونفوذها قد تجاوز وسط نجد، كالوَشْم وسُدَير، إلى بعض بلدان القصيم[5]، وبعد ذلك بأربع سنوات أدرك دهام بن دَوَّاس، أنه لا يستطيع الصمود أكثر مما فعل؛ وبخاصة

---

(١) ابن بشر، ج١، ص٥٩ - ٦٠.

(٢) ابن غنَّام، ج٢، ص٧٣.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٧٤.

(٤) ابن بشر، ج١، ص٦٦ و٧٥.

(٥) ابن غنَّام، ج٢، ص٧٩.

أن العمر تَقدَّم به، وأن ابنيه دَوَّاسًا وسعدونًا قُتلا سنة ١١٨٥هـ[١]. فهرب من الرياض مع أسرته وعدد غير قليل من أنصاره[٢].

وبذلك انتهت مقاومة ذلك الخصم التي استمرت ثمانية وعشرين عامًا تَخَلَّلتها فترات هدنة قصيرة جدًّا، كان يلجأ إليها في حالات ضعفه الشديد. وقد قُتل في الحروب التي دارت بينه وبين أتباع الدرعية أربعة آلاف رجل؛ منهم ألفان وثلاث مئة من رجاله[٣].

وبعد هروب دهام بن دَوَّاس ومن معه من الرياض دخلها عبدالعزيز بن محمد دون قتال. فاستولى على ثروات الهاربين، وضَمَّها إلى خزينة دولته[٤].

جـ- المرحلة الثالثة:

وكان استيلاء عبدالعزيز بن محمد على الرياض ذا أهميِّة كبيرة في تاريخ الدولة السعودية الأولى. وقد عَبَّر ابن غنَّام عن هذه الأَهميَّة بتسميته فتحًا، وإفراد قصيدة من قصائده لتخليده في تاريخه[٥]. ومن نتائجه أن الدولة الجديدة غنمت أموالًا ساعدت في قضاء ما كان على الشيخ محمد من ديون

---

(١) ابن بشر، ج١، ص٧٥.

(٢) يذكر ابن بشر أن دهامًا بعد هروبه من الرياض قصد الخرج. وتذكر الروايات الشفهية: أنه ذهب بعد ذلك إلى زعيم بني خالد، وأن هذا الزعيم لامه على هروبه من بلده، فردَّ عليه قائلاً: إني قاومت آل سعود حوالي ثلاثين عامًا. فهل تستطيع حربهم ثلاثين يومًا؟ ويؤيد ما ورد في هذه الروايات من ذهاب دهام إلى زعيم بني خالد بعد هروبه، ما ذكره أحد المعاصرين لتلك الحادثة. انظر: **كيف كان ظهور شيخ الإسلام**، ص٧٦.

(٣) ابن بشر، ج١، ص٧٧٧.

(٤) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

(٥) ابن غنَّام، ج٢، ص٨٦ - ٨٨.

سبق أن استدانها لمساعدة الفقراء من أنصاره[1]، وأن الشيخ تَخلَّى عن كثير من الأعباء التي كان يقوم بها، فأصبح يقوم بها عبدالعزيز بن محمد[2]. ومن الواضح أن سبب هذا تَقدُّم سِنِّه، واطمئنانه إلى كفاءة عبدالعزيز ونجاح دولته. على أن من أَهمِّ نتائج الاستيلاء على الرياض أن الدولة السعودية تَخلَّصت من أقوى خصم نجدي لها، وأضافت قوة بلده إلى قواتها، كما أصبح في إمكانها أن ترسل جيوشها إلى مناطق بعيدة؛ وبخاصة في جنوبي نجد، دون أن تخشى ضرب مؤخرتها أو قطع مواصلاتها.

وقد أدركت الدولة السعودية غاية الإدراك أبعاد ما توصلت إليه من نصر، فعزمت على الاستفادة منه في توسيع نفوذها، لتشمل مساحتها منطقة نجد كلها. ولم تكن المعارضة لتلك الدولة بأَقلَّ إدراكًا منها لأبعاد ذلك النصر. فلقد رأت فيه نذير خطر عليها. وتَحرَّكت بكل ما تستطيع لتقف في وجه التيار الذي أوشك أن يكتسحها.

وهكذا جمع زعيم بني خالد، عُرَير بن دُجَين، ما لديه من قوات، واتَّجه إلى نجد، على أنه بات يعلم حق العلم أن قاعدة الدولة، الدِّرْعيَّة قد أصبحت بعيدة المنال بعد الاستيلاء على الرياض. فإذا كان قد فشل أمام أسوارها قبل أن يترك الميدان دهام بن دَوَّاس، فإن فشله أكثر احتمالاً بعد انهيار رمز المقاومة النجدية. ورأى أن من الأنسب له أن يهاجم بلدانًا سعودية نائية عن تلك القاعدة، لأن نجاح مهاجمته لها أكثر احتمالاً. فإن هو حقق نجاحًا في تلك البلدان أصبح في إمكانه أن يَتقدَّم إلى قلب الدولة تَقدُّم المنتصر. وكانت بُرَيدة الجهة التي اتَّجه إليها. وقد تَمكَّن من الاستيلاء عليها خدعة. ثم غادرها إلى

(١) ابن بشر، ج١، ص٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٢٧.

الخابية، حيث انهالت عليه رسائل التأييد من خصوم آل سعود النجديين. لكن المنية وافته هناك، فعادت القوات الخالدية إلى الأحساء؛ وذلك سنة ١١٨٨هـ[١].

توحيد جنوبي نجد:

كان قادة الدرعية قد قاموا ببعض الغزوات على إقليم الخرج قبل استيلائهم على الرياض. وكان من أبرز أمراء ذلك الإقليم زيد بن زامل، أمير الدِّلَم، الذي وضع يده في يد دهام بن دَوَّاس في عدة مناسبات. ولذلك كان طبيعيًّا أن تتجه أنظار أولئك القادة إلى إقليم الخرج بعد أن انفتحت الطرق إليه بالاستيلاء على الرياض.

وهكذا أرسل عبدالعزيز بن محمد رسالة إلى زيد بن زامل يخبره فيها بأن عليه أن ينضم إلى دولته، وإلا فإنه سيحاربه. لكن زيدًا رفض الانضمام إلى الدولة المذكورة[٢]. فبدأت القوات السعودية تهاجم بلاده.

وكان أَوَّل ما قام به السعوديون ضد زيد بن زامل غزوة قادها سعود بن عبدالعزيز سنة ١١٨٨هـ[٣]. وفي السنة التالية أغار عبدالعزيز بن محمد نفسه على الدِّلَم، وألحق بها من الخسائر ما دفع زيد بن زامل إلى البحث عن حليف قوي، يستعين به على درء الخطر المحدق به[٤]. وقد رأى أن أنسب من يمكن الاستعانة به رئيس نجران، الذي كان صدى انتصاره على قوات الدِّرْعيَّة في الحائر، سنة ١١٧٨هـ، لا يزال عالقًا في الأذهان.

---

(١) ابن غنَّام، ج٢، ص٨٩؛ ابن بشر، ج١، ص٧٨.

(٢) ابن غنَّام، ج٢، ص٨٨.

(٣) ابن بشر، ج١، ص٧٨.

(٤) ابن غنَّام، ج٢، ص٨٨ و٩٠.

والتزم زيد بن زامل لحسن بن هِبَة الله المَكْرمي بدفع أموال طائلة، مقابل اشتراكه في عمل عسكري ضد عبدالعزيز بن محمد. واجتمع الحلفاء من نجران وقبائل يام والدواسر وغيرهم، وساروا حتى وصلوا إلى الحائر. وهناك جرت بينهم وبين أتباع الدِّرْعيَّة مناوشات غير حاسمة. ثم ارتحل الحلفاء إلى ضرما، حيث دارت معركة اضطر بعدها أولئك الحلفاء إلى الانسحاب، تاركين وراءهم عددًا من القتلى، وذلك سنة ١١٨٩هـ[١].

ويعود انتصار أتباع الدِّرْعيَّة على جيش المتحالفين إلى أسباب من أَهمِّها:

١- ارتفاع معنوياتهم بعد الاستيلاء على الرياض، وعودة جيوش بني خالد سنة ١١٨٨هـ دون أن تُحقِّق أهدافها.

٢- عدم وجود الثقة بين أطراف المتحالفين. ولَعلَّ مما يوضح ذلك أن رئيس نجران لم يشترك في الحرب إلا بمال دُفِع إليه، وأن ذلك المال لم يدفع إليه إلا بعد أخذ رهائن منه. وهكذا كان غرض ذلك الرئيس من الاشتراك في الحرب الحصول على المال لا جدِّية القتال. وما دام قَبَض المال فإن أَيَّ قتال يقوم به كافٍ للتدليل على وفائه بالتزامه تجاه من دفعه إليه.

٣- ما ذكره ابن غنَّام من أن الرئيس النجراني مرض أثناء المناوشات[٢]. ولا بُدَّ أن مرضه أَثَّر على معنويات قومه، وعَجَّل بانسحابهم.

وكان من نتائج فشل المتحالفين أن أصبح زيد بن زامل في موقف أكثر حرجًا من ذي قبل. فاضطر إلى أن يفد إلى الدِّرْعيَّة معلنًا ولاءه لقادتها. لكن ولاءه لم يطل. ذلك أنه قام بتصرفات جعلت عبدالعزيز بن محمد يُجهِّز جيشًا

(١) المصدر نفسه، ج٢، ص٨٨ و٩١ - ٩٢؛ ابن بشر، ج١، ص٨٠.

(٢) ابن غنَّام، ج٢، ص٩٣.

ضده. وما أن اقترب ذلك الجيش من الدِّلَم حتى هرب منها زيد. فدخلها الجيش السعودي، وعَيَّن قائده أميرًا لها من قِبَله. على أن زيد بن زامل ما لبث أن عاد إلى بلدته بمساعدة قسم كبير من أهلها[1].

ومضت مدة انشغل فيها قادة الدرعية بمشكلات داخلية، قامت في كل من الزُلفي وحَرْمة. ثم قاد سعود بن عبدالعزيز، سنة ١١٩٥هـ، جيشًا حاصر به الدِّلَم وقطع به بعض نخيلها. وكان مما قام به أيضًا، أن بنى قصرًا قرب البلدة سُمِّي قصر البِدْع، ووضع فيه رجالًا لمضايقة أهلها عسكريًّا واقتصاديًّا. وقد أدرك زيد وأتباعه خطورة ذلك القصر، فحاولوا الاستيلاء عليه دون جدوى. فاستنجدوا بزعيم بني خالد، سعدون بن عُرَيعر، لكن جميع محاولاتهم باءت بالفشل[2].

واستمرت الغزوات السعودية على إقليم الخرج. واستمر زيد بن زامل نشيطًا في معارضته. وبينما كان عائدًا من إحدى غزواته، سنة ١١٩٧هـ، صادفته كتيبة سعودية، فاشتبكت معه، وقتلته. وتَولَّى إمارة الدِّلَم ابنه بَرَّاك، الذي سلك مسلك أبيه في عدائه لقادة الدِّرْعيَّة. لكن من حسن حظ هؤلاء القادة أن خلافًا نشب بين أفراد أسرته على الإمارة. ونتج عن ذلك الخلاف مقتل بَرَّاك ابن زيد، ولجوء من قتلوه إلى الدِّرْعيَّة سنة ١١٩٩هـ. ثم قام سعود بن عبدالعزيز في تلك السنة بحملة إلى الدِّلَم، فاستولى عليها. وجعل إمارتها لسليمان بن عُفَيْصان، الذي أصبح من أعظم القادة العسكريين في الدولة السعودية الأولى[3].

---

(١) ابن بشر، ج١، ص٨١ - ٨٢ و٨٦.

(٢) ابن غنَّام، ج٢، ص١٠٧ - ١١١. ومن بين المحاولات التي قام بها المحاصرون للاستيلاء على القصر عمل صندوق كبير له عجلات ووضع أناس داخله حتى يقتربوا من السور. وعندئذ يخرجون ليقتحموه. لكن هذا الصندوق خرب وتوقف قبل الاقتراب من سور القصر، ولم يستطع من كانوا داخله الخروج منه إلا بعد حلول الظلام خوفًا من رصاص أهل القصر.

(٣) ابن بشر، ج١، ص٩٦ - ٩٧.

وقد واكب النجاح السعودي في إقليم الخرج نجاح آخر في الجهات الواقعة جنوبًا عنه كحوطة بني تميم والحَرِيق. ثم وفد عدد من زعماء وادي الدواسر إلى الدِّرْعيَّة معلنين ولاءهم لقادتها. وبعد هذا بايع جميع أهل الوادي أولئك القادة سنة ١٢٠٢هـ[١]. وهكذا شمل الحكم السعودي كل جنوبي نجد في مستهل القرن الثالث عشر الهجري.

توحيد شمالي نجد:

كانت بُرَيدة أَوَّل بلدة من بلدان القصيم تعلن ولاءها لقادة الدِّرْعيَّة؛ وذلك سنة ١١٨٢هـ[٢]. وقد شهدت تلك السنة والسنة التي بعدها نشاطًا عسكريًّا سعوديًّا في ذلك الإقليم. وفي عام ١١٨٨هـ استولى زعيم بني خالد، عُرَيعر بن دُجَين، على بُرَيدة، ثم ارتحل منها إلى الخابية حيث وافته المنيَّة. وعادت القوات التي كانت معه إلى الأحساء، كما سبق أن ذُكِر. وكان عُريعر قد ولَّى في بُرَيدة راشدًا الدريبي، أحد أفراد أسرة الإمارة في تلك البلدة[٣].

ولم يكن متوقعًا أن يقف قادة الدرعية مكتوفي الأيدي تجاه ما حدث في بُرَيدة. ولهذا قاد سعود بن عبدالعزيز جيشًا، سنة ١١٨٩هـ، وهاجم به تلك البلدة. لكنه لم يُوفَّق في الاستيلاء عليها. فبنى حولها قصرًا ترك فيه رجالاً بقيادة عبدالله بن حسن، الذي كان أميرًا للبلدة المذكورة قبل استيلاء الزعيم الخالدي عليها. وقد تمكَّن عبدالله بن حسن من استعادة بُرَيدة. وكان من

---

(١) ابن غنَّام، ج١، ص٦٧.

(٢) ابن بشر، ج١، ص٦٧.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٧٨. ومعروف أن أحد أجداد راشد، واسمه راشد الدريبي، أيضًا، هو الذي اشترى موضع بريدة من آل هذَّال من شيوخ قبيلة عنزة سنة ٩٨٥هـ. انظر: إبراهيم بن عيسى، عقد الدرر، ص٨٢.

نتيجة ذلك أن أعلنت بلدان القصيم الولاء للدولة السعودية. لكن بعض هذه البلدان ثارت ضد هذه الدولة سنة ١١٩٦هـ، متعاونة مع الزعيم الخالدي، سعدون بن عُرَيعر، الذي قاد الجميع وحاصر بُرَيدة. وكان أمير هذه البلدة حينذاك حُجَيلان بن حمد، الذي تَولَّى إمارتها بعد مقتل عبدالله بن حسن في الخرج سنة ١١٩٠هـ[١]. ورغم محاصرة الزعيم الخالدي وحلفائه لتلك البلدة أربعة شهور، فإنهم فشلوا في الاستيلاء عليها. فانسحب سعدون وقومه عنها[٢]. واضطر أكثر الثائرين من أهل القصيم إلى إعلان ولائهم للدولة السعودية من جديد. لكن بلدة عنيزة لم تخضع خضوعًا تامًّا لتلك الدولة إلا سنة ١٢٠٢هـ[٣].

ولقد كان لحجيلان بن حمد دور كبير في تثبيت الحكم السعودي في القصيم، وفي إدخال جهات من شمالي نجد تحت ظِلِّ هذا الحكم. فقد رأس سنة ١٢٠٠هـ، حملة عسكرية اتَّجه بها إلى جبل شَمَّر. وكان مما قام به هناك أن رصد في بَقْعاء لقافلة تجارية قادمة من العراق، وقتل عددًا من رجالها، وأخذ ما كان معها من بضائع لأهل الجبل[٤]. وكان الإنهاك الاقتصادي من الأساليب الناجحة التي اتَّخذها قادة الدرعية لإرغام خصومهم على الاستسلام لهم. ويبدو أن إدراك زعماء الجبل لقوة الدولة السعودية، واقتناع بعضهم بصحة مبادئ الدعوة الإصلاحية، كانا من الأمور التي جعلت غزو حجيلان لتلك الجهة بعد حملته الأولى بسنة يؤدِّي ثماره المرجوَّة. ذلك أنه لم يعد من هناك إلا وقد دخل إقليم جبل شَمَّر تحت طاعة آل سعود[٥]. وهكذا أصبح شمالي نجد جزءًا

---

(١) ابن غنَّام، ج٢، ص٩٩.

(٢) ابن بشر، ج١، ص٩٢ - ٩٣.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص١٠٠.

(٤) ابن غنَّام، ج٢، ص١٢٦.

(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص١٣٠.

من الدولة السعودية في مستهل القرن الثالث عشر الهجري مثلما أصبح جنوبيها، وانصهرت جميع البلدان والأقاليم النجدية في بوتقة دولة واحدة.

وبعد دخول جبل شَمَّر في طاعة آل سعود اتَّجهت أنظارهم إلى ما يليه شمالاً من جزيرة العرب. وقد بدأ نشاطهم بغارة قادها أمير جبل شَمَّر، محمد بن عبدالمحسن بن علي، على فئات من قبيلة الشرارات حول دومة الجندل، منطقة الجوف حاليًا[1]. وفي عام ١٢٠٨هـ اتَّجهت قوات سعودية من الجبل والقصيم والوَشْم بقيادة محمد بن مُعَيقل، أمير الإقليم الأخير إلى الجوف، وتَمكَّنت بعد قتال عنيف من إدخال أكثر تلك البلاد تحت نفوذ الدولة السعودية[2]. وحينما تَمَّ إخضاعها كلها فيما بعد رُبِطت إداريًّا بأمير جبل شَمَّر[3]. وقد قام هذا الأمير بجهود موفقة استولى بها على تيماء، ووادي السرحان، وخيبر وما حولها، حتى أصبح شمالي الجزيرة العربية كله جزءًا من الدولة السعودية الأولى[4].

٥- الدولة السعودية والقبائل في نجد:

لم تكن الجهود التي بذلتها الدولة السعودية الأولى لتوحيد نجد مقصورة على حاضرة هذه المنطقة، وإنما كانت شاملة للحاضرة والبادية على حَدٍّ سواء. ومن القبائل التي حدثت بينها وبين الدولة الجديدة اشتباكات في تلك الفترة سُبَيع، ومُطَير، والظَّفِير، وعنزة، والدواسر، والعُجْمان. وكما كانت بعض البلدان

---

(١) **كيف كان ظهور شيخ الإسلام**، ص١٤١.

(٢) ابن غنَّام، ج٢، ص١٦٨؛ ابن بشر، ج١، ص١٣٢ - ١٣٣.

(٣) المصدر الأخير نفسه، ج١، ص٢٣٧ - ٢٣٨. وقارن ذلك بحمد الجاسر، في **شمال غرب الجزيرة**، دار اليمامة، ١٣٩٠هـ، ص١٢٣.

(٤) **كيف كان ظهور شيخ الإسلام**، ص١٤٠ - ١٤٥.

النجدية تذعن حينًا وتثور حينًا آخر، فإن بعض القبائل كانت توالي قادة الدرعية فترة، ثم تنضم إلى خصومهم فترة أخرى، وفق ما تمليه عليها مصالحها الخاصة، وتمشيًا مع الظروف الآنيَّة.

ومن الواضح أن كثيرًا من القبائل في نجد لم تخضع للدولة السعودية اقتناعًا بالدعوة التي قامت على أساسها تلك الدولة، أو إعجابًا بما ترمي إليه من توحيد سياسي للمنطقة، وإنما خضعت لها لشعورها بالضعف أمام هجماتها المفاجئة في أغلب الأحيان. وكان لهذا أثره في المستقبل؛ إذ إن هذه القبائل ما إن رأت ضعف موقف الدولة السعودية أمام الغزو المصري العثماني حتى رمت بثقلها مع الغزاة.

ومما يراه المتأمل في تاريخ تلك الفترة: أن أكثر غزوات قادة الدولة السعودية للقبائل في نجد كانت مُوفَّقة؛ وبخاصة من الناحية المادية. وما إن تمكنت هذه الدولة من توحيد بلدان نجد حتى اضطرت جميع القبائل الموجودة فيها إلى إعلان الولاء لها. أما القبائل التي لم تُحبِّذ التبعية لها فقد غادرت المنطقة. وممن نزح عن نجد فئات من قبيلتي شَمَّر والظفير.

*****